

التفسير المطول - سورة النساء ٤٠٠ - الدرس(٦٩-٥٩) : تفسير الآيات ١٣١-١٣٤ ، العدل والظلم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-٠٥-٠٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعود الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا بما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، واجعلنا من يسمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

الله جل جلاله يخاطب الناس جمیعاً بأصول الدين ويخاطب الذين آمنوا بفروع الدين:

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع والخمسين من دروس سورة النساء ومع الآية الخامسة والثلاثين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُوْنُوا قَوَّامِينَ
بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ اللَّهِ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أُو
الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ
فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَمَا تَتَبَعَّدُوا هُوَ
أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَنْتَوْا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ
اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾



من آمن شمله خطاب الله للمؤمنين وعليه الاتصاف

أيها الأخوة الكرام، كما هو معلوم لديكم أن كل آية تتصرد بقوله تعالى: يا أيها

الذين آمنوا، معنى ذلك أنه بعقدك الإيماني مع الله ينبغي أن تتأمر بما أمر، وأن تنتهي عما عنه نهى ونذر، ذلك لأن الله جل جلاله يخاطب الناس جمیعاً بأصول الدين:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾

[سورة البقرة: ٢١]

ويخاطب الذين آمنوا بفروع الدين.

من لوازم الإيمان أن تؤمن بالله وأن تؤمن بما أراده منك :

لأنك آمنت بالله خالقاً ومربياً ومسيراً، لأنك آمنت بالله موجوداً وواحداً وكاملاً، لأنك آمنت بسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، لأنك آمنت بكل ذلك، آمنت به خبيراً وعليناً وحكيناً ورحيناً وعدلاً، لأنك آمنت به الإيمان الصحيح ينبغي أن تتصاع لأمره وأن تقبل على معرفة مراده منك، هناك من يؤمن بالله ولا يبحث عن مراد الله منه هذا إيمان لا يقدم ولا يؤخر.

من لوازم الإيمان أن تؤمن بالله وأن تؤمن بما أراده منك، تؤمن بالله عن طريق الكون وإعمال العقل، ثم تتعرف إلى مراده منك عن طريق الرسول، فالإيمان بالله ورسوله متلازمان، الإيمان بالله أي آمنت بوجوده وكماله ووحدانيته، والإيمان برسوله أي آمنت بمراد الله منك، لماذا خلقك؟ ماذا ينبغي أن تعمل؟

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُوْنُوا قَوَّامِينَ﴾

قوامين جمع قوام، وقام صيغة مبالغة من قائم:

﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾

الإنسان مثلاً لو كذب مرة واحدة يقال له: كاذب، أما إذا كان الكذب ديدنه يقال له: كذاب، صيغة مبالغة، فصيغة المبالغة تعنى الاستمرار، فبين أن يقول الله: كن قائماً بالقسط، أي قد تكون مرة واحدة، أما: كن قواماً، أي دائماً وأبداً، كن قواماً بالقسط، والقسط هو العدل.

الفرق بين القسط والعدل :

لكن ما الفرق بين القسط والعدل؟ طبعاً قسط يقسط، ظلم يظلم:
 ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾

[سورة الجن: ١٥]



[سورة الأنعام: ١]

يروى أن أحدهم دخل على أمير وقال:
 أنت فاسط عادل، فقال هذا الأمير
 لجلسائه: أتدرون ماذا قال لي؟ قالوا:
 مدحك، قال: لا، قال لي: أنت ظالم
 كافر، قالوا: وكيف؟ قال:
 ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾

[سورة الجن: ١٥]

﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدُلُونَ﴾

فقط بمعنى ظلم، أفسط: بمعنى رفع الظلم، فذلك العدل أن توزع حقوق الناس ابتداء فأنت عادل، أما إذا قلنا: أنت مقطط أي ردت الحقوق لأصحابها، رفعت الجور، رفعت الظلم، طبعاً العدل درجة ابتدائية، أنت حينما وزعت أموالك وزعها وفق منهج الله بين أولادك فأنت عادل، لكن لو حابيت واحداً وظلمت الآخر، ثم جاء من يصح لك القسمة فهذا الثاني يقال له: مقطط، أي رفع الجور عن بقى الأخوة، إذا الله عز وجل يأمرنا أن نرفع الظلم والجحود، والحقيقة لا يمكن أن ينتصر أنس ولو آمنوا بربهم إذا كانوا ظلاماً، والدليل:

﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

[سورة الأنعام: ٨١]

قال:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾

[سورة الأنعام: ٨٢]

هناك من يؤمن ويليس إيمانه بالظلم، لذلك: إن الله ينصر الأمة العادلة الكافرة على الأمة المسلمة الطالمة.

الظلم أحد أكبر أسباب انهيار الأمة :

الظلم أيها الأخوة أحد أكبر أسباب انهيار الأمة، وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها: ((أنَّ قَرِيشًا أَهْمَمُهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرَئُ عَلَيْهِ إِلَّا أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حَبَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَلَمَهُ أَسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتَشْفَعُ فِي حَدِّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟ ثُمَّ قَامَ فَأَخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقُوا فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقُوا فِيهِمُ الْضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَأَيْمُونُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[انتقل عليه عن عائشة رضي الله عنها]

هذا البرمكي الذي كان في أعلى مقام في عهد هارون الرشيد أودع في السجن فجأة، فزاره زائر قال له: ما هذا؟ قال له: لعلها دعوة مظلوم أصابتي.

الظلم أيها الأخوة ظلمات يوم القيمة، إن بعض العلماء يقول: الدنيا — لا أقول الآخرة — تصلح بالكفر والعدل،



الظلم ظلمات يوم القيمة

ولا تصلح بالإيمان والظلم، ارفع أي شعار وسم نفسك ما تشاء، قل: أنا مؤمن كبير، أنا مسلم، فإذا كنت ظالماً فهذا الانتماء لا قيمة له إطلاقاً، لذلك لما سيدنا ابن رواحة الذي كلفه النبي أن يقيّم تمر خير، وأهل خير من اليهود، وقد أغروه بطي نسائهم كرشوة ليخفض التقييم، فعن جابر بن عبد الله قال:

((أَفَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَفَرَّهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا كَانُوا وَجَعَلُوهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، فَبَعْثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ فَخَرَصَهَا عَلَيْهِمْ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ أَنْتُمْ أَبْعَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ قَاتَلْتُمْ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَكَذَبْتُمْ عَلَى اللَّهِ وَلَيْسَ يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُمْ عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ قَدْ خَرَصْتُ عِشْرِينَ أَلْفَ وَسَقْ مِنْ تَمْرٍ فَإِنْ شَئْتُمْ فَلَكُمْ وَإِنْ أَبِيْتُمْ فَلِي، فَقَالُوا: بِهَذَا قَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ قَدْ أَخَذْنَا فَأَخْرُجُوا عَنَا))

[أحمد عن جابر بن عبد الله]

الآن دققوا ماذا قالوا: قالوا:

((بِهَذَا قَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ))

حينما يظلم بعضاً لا نستحق نصر الله عز وجل :

اسمعوا هذه الكلمة أيها الأخوة، والله، ثم والله لو فهم أصحاب رسول الله الإسلام كما نفهمه نحن الآن والله ما خرج الإسلام من مكة المكرمة، كيف وصل إلى الصين شرقاً وإلى إسبانيا غرباً؟ كيف وصل؟ بالعدل، فحينما يظلم بعضاً لا نستحق نصر الله عز وجل، والآيات واضحة كالشمس:

﴿فَإِنَّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾

[سورة الأنعام: ٨١-٨٢]



يروي التاريخ أيها الأخوة أن قاضياً من كبار القضاة في بعض العهود الأموية اتصل بال الخليفة طالباً منه أن يعيده من منصبه، فلما سأله عن السبب، قال له: والله طرق بابي البارحة فإذا بطبق من الرطب، وأنا معروف عند أهل البلدة أني أحب الرطب في بوادي، سألت الغلام: من جاء بهذا الطبق؟ قال: الغلام: من جاء بهذا الطبق؟ قال: رجل، قال: صفة لي؟ قال: هو كيت

وكيت، أي هكذا أوصافه، فعلم أنه أحد المتخاصلين عنده فرد الطبق، في اليوم التالي يقول هذا القاضي: والله لما دخل علي المتخاصلان تمنيت أن يكون الحق مع الذي قدم الطبق، مع أنني لم آخذه، فكيف لو أخذته؟ هذا العدل، حتى التاريخ الحديث يروي أن بلداً كبيراً جداً في أوروبا عقب الحرب العالمية الثانية، وقد دمر كل شيء، وقف رئيس الوزارة يسأل وزيراً وزيراً، سأله وزير الصناعة: كيف الحال عندك يا فلان؟ قال له: المعامل كلها محروقة، سأله وزير الزراعة؟ قال له: الحقول كلها محروقة، سأله وزير الخزانة قال له: والله الخزانة فارغة، سأله جميع الوزراء، فلما وصل إلى وزير العدل قال له: كيف العدل عندك يا فلان؟ قال له: العدل بخير، فقال: كنا إذاً بخير.

قيمة العدل كبيرة، في العالم الإسلامي ظلم لا يعلمه إلا الله، ظلم من أب لأولاده، من زوج لزوجته، من صاحب عمل لعماله، الظلم والتفرقة من أسباب هلاك الأمم، لذلك عدل ساعة خير من عبادة ستين عاماً، ويروى في الكتب – وللمغرب فقط – أن حجراً ضج بالشكوى إلى الله، قال: يا رب عبدتك خمسين عاماً وتضعني في أنس كنيف؟ فقيل: تأدبي يا حجر إذ لم أجعلك في مجلس قاض ظالم.

أكبر إجاز للمؤمن أن ينام مساء دون أن يظلم أحداً :

حينما نعدل نستحق النصر، وحينما نظلم لا نستحق نصر الله عز وجل، ماذا قال اليهود لعبد الله بن أبي رواحة؟ قال: بهذا قامت السموات والأرض. عن النعمان بن بشير قال: ((أنحنى أبي نحلاً فقالت له أمي عمرة بنت رواحة: أنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشهدك، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأشهده ذكر ذلك له، فقال له: إني نحت ابنى النعمان نحلاً وإن عمرة سالتني أن أشهدك على ذلك، قال: فقال: الله ولد سواه؟ قال: قلت: نعم، قال: فكلهم أعطيت مثل ما أعطيت النعمان؟ قال: لا، قال: فقال بعض هؤلاء المحدثين: هذا جور، وقال بعضاً لهم: هذا تلجنة فأشهد على هذا))

[منقى عليه عن النعمان بن بشير]

عن أبي هريرة أنَّه حدَّثَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((إِنَّ الرَّجُلَ لِيَعْمَلُ وَالْمَرْأَةَ بِطَاعَةِ اللَّهِ سَيِّئَةً ثُمَّ يَحْسِرُهُمَا الْمَوْتُ فَيُضَارَانِ فِي الْوَصِيَّةِ فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ))

[الترمذى، أبو داود، ابن ماجه عن أبي هريرة]

أين العدل في حياة المسلمين؟ كم من أخ حرم أخواته البنات من الإرث؟ وكم من أب حابى أولاد زوجته الثانية وظلم أولاد زوجته الأولى؟ كم من صاحب عمل ما أعطى العامل ما يستحق؟ لأن العامل فقير، ومضطر إلى أن يعمل، أعطاه جزءاً يسيراً من حقه، وقد قال عليه الصلاة والسلام:



(أَعْطُوا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجْفَ عَرْقُهُ)

[ابن ماجه عن عبد الله بن عمر]

أخواننا الكرام: أكبر إنجاز لك أيها المؤمن أن تتم مساء دون أن تظلم أحداً، وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما:

((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ: اتَّقْ دَعْوَةَ الْمُظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بِيُنَاهَا وَبَيْنَ الْلَّهِ حِجَابٌ))

[متفق عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما]

اتقوا دعوة المظلوم ولو كان كافراً، الله عز وجل يستجيب للمظلوم لا بأهليته للاستجابة ولكن باسم الله العدل، ويستجيب للمضطط ولو لم يكن أهلاً للإجابة، لا بأهليته للإجابة ولكن باسم الرحيم.

الله عز وجل عدل والعدل يأبى الظلم :

أيها الأخوان الكرام: ينبغي أن تدعوا للمليلار قبل أن تظلموا نملة، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((عذبت امرأة في هرّة حبسها حتى ماتت جوعاً فدخلت فيها النار قال: والله أعلم نا أنت أطعمنتها ولا سقيتها حين حبسها ولا أنت أرسلتها فأكلت من خشاش الأرض))

[متفق عليه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما]



كم من بيت مسلم فيه ظلم؟ زوجة الابن قد تكون مظلومة وكلهم يعلو عليها ويسحقونها، وقد تكون البنت مظلومة مع أخواتها الذكور لا يعطونها شيئاً،

تفسير الآيات ١٣١-١٣٤ ، العدل والذ

حينما يشيع الظلم في حياة المسلمين، في بيئتهم، في أعمالهم، في بيوthem وشرائهم، لا تستحق جمِيعاً نصر الله عز وجل، إن الله ينصر الأمة العادلة الكافرة على الأمة المسلمة الظالمة، ترون ماذا يفعل بعض المسلمين في بعضهم قبل أن ينكشفوا، هذا نموذج، الله عز وجل عدل، والعدل يأبى الظلم، وعد للمليار قبل أن تظلم نملة، دخلت امرأة النار في هرة حبستها لا هي أطلقها، ولا هي أطعنتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، فإذا كانت الهرة مظلومة يستحق من ظلمها نار جهنم، فكيف بما فوق الهرة؟ وكيف بأمم وشعوب تظلم؟ تحمل أرضها وتُهَب ثرواتها، ويُسْفَك دمها رخيصاً بلا سبب:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾

ما قال: كونوا قائمين بالقسط، قوام صيغة مبالغة، فعل مستمر طوال حياتك، لا تنطق إلا بالحق، ولا تأكل حق أحد ولو كان ضعيفاً، ولو كنت أقوى منه، ولو كان ضعيف الحاجة و كنت أ Finch منه، الله وليه، يا رب كم عصيتاك فلم تعاقبني، فوقع في قلبك: أن يا عبدي قد عاقبتاك ولم تدر، هذه الآلام العامة، هذا الظلم الذي يواجهه المسلمين من دول عظمى سببه أننا نظلم بعضنا بعضاً طبعاً، أموال طائلة تودع في بنوك الكفار ثم تجمد وتصادر والمسلمون في أمس الحاجة إليها، وإذا فتحنا ملف الظلم لا ينتهي الدرس بنا إلى الفجر، الظلم ظلمات يوم القيمة، حاول ألا تظلم أحداً ولو بكلمة، ولو بعبوس، ولو بإعراض، لأن الله سيحاسب، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام وصل في توجيهه إلى أنك إذا قيلت ابنك الأول ولم تقبل الثاني فقد ظلمت، إلى هنا وصل العدل، هلا سويت بينهما في العطية.

على المؤمن أن يشهد بالحق من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل :

قال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾

الآن ينبغي أن تشهد الله، أن تشهد الحقيقة، أي أن تقول الحقيقة لا من أجل زيد أو عبيد أبداً، من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل:

﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهُدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾

[سورة البقرة: ٢٨٢]

أنت مكلف أن تشهد الحقيقة لماذا؟ فلان رجاني أن أشهد له، لا، لا من أجل لابد أن تشهد بالحقيقة لاحقاق الحق وإبطال الباطل فلان ولا من أجل علان، ولا ليرضى



زيد ولا ليغضب عبيده، ينبغي أن تشهد الله أداء لحق الله عز وجل ولا تأبى أن تشهد، أحياناً مثلاً يركب الإنسان بمركبة والسائق ظُلم ولم يرتكب أي خطأ، وصار هناك دهس، لا يتنازل هذا الراكب أن يقطع من يومه ساعة أو ساعتين ليلاً بشهادة أمام قاضي السير، ارتكب أكبر معصية، أنا كنت راكباً والطفل قفز إلى أمام المركبة، والمركبة تسير ببطء شديد، كان هناك ازدحام، هذه الشهادة لا تقدر بثمن:

﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾

[سورة البقرة: ٢٨٢]

اشهد ولا تأخذك في الله لومة لائم، ما قيمة حياتك من دون عدل؟ الكفار حينما عدلوا استحقوا النصر، والمسلمون حينما ظلموا ظلموا استحقوا ألا ينتصروا.

إن الله ينصر الأمة العادلة الكافرة على الأمة المسلمة الظالمة :

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُوْنُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾

القسط العدل، ومعنى القسط أيضاً أن ترفع الظلم، عدل من الدرجة الثانية، أن تعطي بالعدل فهذا عدل، أما أن تكون مقططاً أن ترفع الجور:

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصِّنِ جَنَفاً أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَإِنْمَا عَلَيْهِ﴾

[سورة البقرة: ١٨٢]

يروى أن سيدنا علي كرم الله وجهه اشتكي عليه يهودي لسيدنا عمر، وكان هذا الصحابي الجليل جالساً إلى جنب عمر، دخل اليهودي واشتكى على الإمام علي، فقال عمر: قم يا أبا الحسن فقف إلى جانب الرجل، فتغير لون سيدنا علي، بعد أن حكم بالعدل وصرف اليهودي، قال له: يا أبا الحسن أوجدت علي؟ قال له: نعم، ماذا فعلت؟ أوقفتك إلى جانبه، قال: لم قلت لي: يا أبا الحسن، ولم تقل لي يا علي، لقد ميزتني عليه؟ وصلنا إلى هذا المستوى، سيدنا علي يُسرق درعه ويُجده عند يهودي، ويرفع القضية إلى أحد القضاة، قال له: يا إمام – كان أمير المؤمنين – قال له: من يشهد لك؟ قال له: ابني، قال: ابنك لا تقبل شهادته، وبقي الدرع مع اليهودي، فلما رأى اليهودي هذا أعلن إسلامه، أمير المؤمنين يرفع قضيته أمام قاض، ويأتي بشاهد هو ابنه، وترفض شهادته، هكذا العدل، شخص من الصحابة في أثناء الهجرة ألقى القبض عليه، وقال للذين قبضوا عليه: عهداً لله إن أطلقتموني لن أحاربكم، فأطلقوه وصدقوه، فلما وصل إلى النبي، وأخبر النبي بما كان فرح به النبي، بعد حين كانت غزوة فانضم إليها، قال له: ارجع يا فلان، ألم تعاهدهم إلا نقاتلهم، هذا الإسلام، الإسلام لا كما يتوهم الناس بأداء شعائر أداء أجوف، أعود وأقول: والله، ثم والله، ثم والله، لو فهم الصحابة الكرام الإسلام كما نفهمه نحن ما خرج الإسلام من مكة المكرمة، نفهمه نحن مظاهر، نوح ونضع الزينة، وصار الحاج فلاناً، التعامل اليومي لا يوجد به دقة، الظلم

شائع بين المسلمين، على مستوى العلاقات الشخصية، على مستوى الأعمال، على مستوى التجارة، يوجد أحياناً غش، مرة قال لي شخص كلمة عابرة، قال لي: اشتريت مئتي بيضة فاسدة بعها بسرعة في سوق الجمعة، بينما يظلم بعضنا بعضاً نسقط من عين الله جمياً ولا نستحق أن ينصرنا الله عز وجل، أعود وأقول: إن الله ينصر الأمة العادلة الكافرة على الأمة المسلمة الظالمة.

إذا لم يتمثل المسلم قيم الإسلام فلا قيمة لإسلامه :

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾

صيغة مبالغة أي القسط ينبغي أن يكون دينكم، سلوك مستمر:
 ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾

أشهد الحقيقة، الأبلغ من ذلك:

﴿وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾

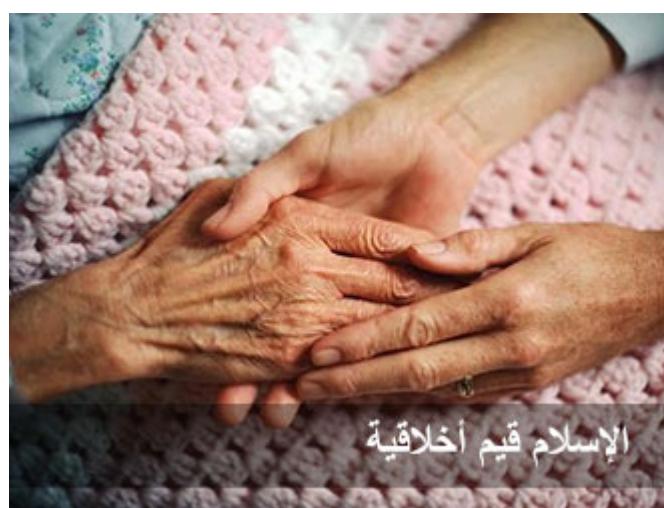
أي أنت المخطئ، ولا يوجد شاهد عليك أبداً، تقول: أنا فعلت كذا، هذا هو الدين، المسلم إذا لم يتمثل قيم الإسلام ما قيمة إسلامه؟ ماذا قال سيدنا جعفر النجاشي؟ قال له:

((أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَا قَوْمًا أَهْلَ جَاهْلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطِعُ الْأَرْحَامَ وَنُسْبِئُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيَّ مِنَ الْمُضْعِيفِ فَكُنَا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِتُوَحِّدَهُ وَتَعْبُدَهُ وَتَخْلُعَ مَا كُنَا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأُوْثَانِ وَأَمْرَ بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصَلَةِ الرَّحْمَمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْكُفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْدَّمَاءِ وَنَهَايَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقُولُ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتَمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ وَأَمْرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَأَمْرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ قَالَ: فَعَدَدْ عَلَيْهِ أُمُورِ الْإِسْلَامِ، فَصَدَقَنَاهُ وَآمَنَا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَحَرَمْنَا مَا حَرَمَ عَلَيْنَا وَأَحْلَلْنَا مَا أَحْلَلَ لَنَا فَعَدَّا عَلَيْنَا قَوْمًا فَعَدَّبُونَا فَفَتَنْتُونَا عَنِ دِينِنَا لِيَرْدُونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأُوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَا نَسْتَحِلُّ مِنْ الْخَبَائِثِ وَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقَّوْا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَ دِينِنَا وَبَيْنَ دِينِنَا خَرَجْنَا إِلَى بَلْدِكَ وَأَخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سُوَاكَ وَرَغَبْنَا فِي جِوَارِكَ وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمْ عِنْدَكَ))

[أحمد عن أم سلمة]

الإسلام فيه عدل لكن المسلمين ظلموا فلما ظلموا لم يستحقوا أن ينصروا :

الإسلام قيم أخلاقية، والله حدثي أخ قال لي: أعمل عند قريبي الغني — قصة قيمة جداً — والله يعطيني في الشهر ألفي ليرة، وينفق في اليوم الواحد عشرة آلاف، وأنا موكل بتتأمين الحاجات للمنزل، أقل مما يستحق بكثير، يستغله، مadam فقيراً يستغلها، إنسان يضع لابنه مدرسين بـ مليون ليرة وعنه موظف بسيط يتيم لا أحد له، يسأله أن يخرج من المحل قبل ساعة ليتحقق بمدرسةليلية ليأخذ كفأة فلا يوافق، يبقيه جاهلاً حتى ينتفع منه ويستغلها.



الإسلام قيم أخلاقية

حينما يبلغ الظلم مستوى كبيراً جداً
نستحق جميعاً غضب الله عز وجل، أي
الحمد لله الذي أخرجنا من ظلم الحكم
— كما قال الصحابة الكرام — إلى عدل
الإسلام، الإسلام فيه عدل، لكن
المسلمين ظلموا، فلما ظلموا لم يستحقوا
أن ينصروا، طبعاً:

﴿شُهَدَاءُ اللَّهِ﴾

لا تشهد لا لزيد ولا لعيبد، ولا تعبأ بغضب فلان ولا علان، ينبغي أن تشهد الله إحقاقاً للحق،
وإبطالاً للباطل.

أيها الأخوة الكرام: كم من شهادة صدق تغير الحكم وتتصف وتزيل الظلم بشهادة؟
﴿شُهَدَاءُ اللَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾

أحدهم تزوج امرأة دون أن يعلم زوجته، هي شعرت أنه يوجد امرأة أخرى بحياته، ثم تهبت أن تفاتهاه بالأمر، كان للزوج في القديم مكانة كبيرة، الآن لا يوجد مكانة أبداً، وتوفي الزوج، فأرسلت هذه الزوجة إلى ضرتها نصيتها من الإرث، فكان جواب الصرة أنه طلقني قبل أيام من وفاته، وليس لي عندكم شيء، هذا الإسلام، بينما نعدل نعيش في جنة، هذا الذي يعطي هذا العامل هذا الأجر أيفيه طوال الشهر، وهو ينفق بغير حساب، عرس ابنه بخمسة وثمانين مليوناً، ولا يعطيه إلا النذر اليسير لا يكفيه، يوجد قوة، المال قوة، والمنصب قوة.

حاشا لله أن نعدل فيما بيننا ثم يأتي من يأخذ أموالنا :

أيها الأخوة الكرام، عن عائشة رضي الله عنها:

((أَنْ قُرِيَشًا أَهْمَمُهُمْ شَانُ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِي عَلَيْهِ إِلَّا أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حَبَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَلَمَهُ أَسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتَشْفَعُ فِي حَدِّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟ ثُمَّ قَامَ فَأَخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلُكَ الَّذِينَ قَبْلُكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقُ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقُ فِيهِمُ الْضَّعِيفُ أَقْامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَأَيْمَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[منقى عليه عن عائشة رضي الله عنها]

يروي التاريخ أن أحد ملوك الغساسنة أسلم، اسمه جبلة بن الأيم، جاء عمر مسلماً، طبعاً سيدنا عمر رحب به، النبي طلب النخبة، وليس خطأ أن تطلب النخبة، رحب به، في أثناء طوافه حول البيت بدوي من فزاره داس طرف ردائه، فانخلع رداء الملك من كتفه، فالتفت إلى هذا الأعرابي الفقير، وضربه ضربة هشمت أنفه، هذا الأعرابي الفقير من فزاره ليس له إلا سيدنا عمر ذهب يشكو جبلة، صاغ شاعر معاصر الحوار شعراً، سيدنا عمر استدعاه قال له: أصحح ما ادعى هذا الفزارى الجريح، قال له: صحيح لست من يكتم شيئاً، أنا أبدت الفتى أدركت حقي بيدي، قال له: أرضي الفتى لا بد من إرضائه، مازال ظفرك عالقاً بدمائه، أو يهشمن الآن أنفك — أيها الملك — وتثال ما فعلته كفك، قال له: عجيب كيف ذاك؟ هو سوقه وأنا عرش وтاج، كيف ترضى أن يخر النجم أرضاً، قال له: نزوات الجاهلية ورياح العنجية قد دفناها، أقمنا فوقها صرحاً جديداً، وتساوى الناس أحرازاً لدينا وعيدياً، فقال له جبلة: كان وهو ما جرى في خلدي أني عندك أقوى وأعز، أنا مرتد إذا أكرهتني، قال له: عنق المرتد بالسيف تحز، عالم نبنيه، كل صدع فيه بشبا السييف يداوى، وأعز الناس بالعبد بالصلعوك تساوى. حينما نظم بعضنا بعضاً يأتي من يظلمنا، احفظوا هذه الكلمة، وحاشا الله أن نعدل فيما بيننا ثم يأتي من يأخذ أموالنا. عن عبد الله بن عمر قال:

((أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتَلَيْتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ... لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَاهَدَ رَسُولُهُ إِلَّا سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخْذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَمْمَتُهُمْ بِكَتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بِأَسَمِهِمْ بَيْنَهُمْ))

[ابن ماجه عن عبد الله بن عمر]

أكبر مخزون نفط في العالم في العراق، صودر كله:

((...لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَاهَدَ رَسُولُهُ إِلَّا سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخْذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ))

هذا الحديث من دلائل نبوة النبي.

إذا خفت من الله فيما بينك وبينه ما كان الله أن يخيفك من أحد :

أنت لست مكلفاً أن تعدل بين الأمة، مكلف أن تعدل بين أولادك، وإن كان لك عمل أن تعدل مع موظفيك فقط، هذا الذي تحاسب عليه، وأن تعدل بين زوجتيك، اعدل فيما أقلمك الله عز وجل، قال له: أشهد غيري فإني لاأشهد على جور، حينما نعدل نستحق أن ننتصر، وحينما يظلم بعضنا بعضاً يأتي من يظلمنا، ويُسْحِقنا، ويأخذ أرضنا، وثروتنا، وكرامتنا، وثقافتنا، وديتنا.

أقول مرة ثانية أيها الأخوة: إذا خفت من الله فيما بينك وبينه ما كان الله أن يخيفك من أحد، وإذا لم تخف من الله إذا كنت قوياً فجأة تقلب الموازين، أرأيتكم كيف يؤتى الله الملك من يشاء، وينزع الملك من يشاء، أرأيتكم؟ إن لم تخف من الله فيما بينك وبينه يخيفك من أحقر خلقه، أما إذا خفت من الله فيما بينك وبينه ما كان الله أن يخيفك من



أنت مكلف أن تعدل بين أولادك

أحد.

أيها الأخوة، أتمنى أن نعدل فيما بيننا، في أسرنا، بين أولادنا، مع موظفينا، اعدل فيما أنت قادر عليه، والله عز وجل لن يظلمك، ولن يخيفك من أحد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدِينِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ والله أيها الأخوة شاب كان من أخواننا في هذا المسجد، وأنا أعتز به إلى أقصى الحدود، والده أنشأ له عملاً في بلد عربي، وهو يمشي في الليل بمركبته اصطدم بسيارة، حادث طفيف جداً، فيها رجل بالتسعين من صدمة نفسية مات، فصار هذا الحادث سبب موت إنسان، اتصل بمدير المعمل، أي بالمدير التنفيذي، وهو صاحب المعمل، قال له: هكذا صار معى، قال له: لا تقلق تعال بعد ساعة إلى المخفر الفلاني، جاء بعد ساعة كل شيء منتهٍ، ضبط مكتوب كامل ولا يوجد عليه مسؤولية إطلاقاً، قال له: لا ما هكذا صار، أنا صدمته، الضبط: هو صدمه، قال له: عجيب أنا أخلصك وتوقع نفسك، قال له: أنا لن أوقع هذا الضبط، أنا صدمته، أنا لا أنجو من عذاب الله، يقول هذا المسؤول: أنا لم أشاهد بحياتي إنسان أنا أخلصه ويوقع نفسه، قال له: أوقعني لأنجو من عذاب الله، ودفع الديمة الكاملة، وعين أولاده عنده بالمعلم، أنا أعتز بهذا الشاب، يحتاج إلى مسلم كهذا المسلم، لم يقبل ينجو من عقاب الدنيا ويقع في عقاب الله عز وجل، قال له: هذا الضبط غير

صحيح، أنا الذي ضربت هذه المركبة وأنا تسببت بموت هذا الرجل، وأنا مستعد لدفع كل شيء على، عندما نكون هكذا جمِيعاً نقيم العدل بيننا نستحق أن ننتصر على أعدائنا.

الشهادة إما أن تكون لله لإحقاق الحق أو أن تكون بداعي الهوى :

قال تعالى:

﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾

يروى أن شريح أحد القضاة الكبار اختصم ابنه مع أشخاص، فقال له: يا أبا أبت أعرض عليك هذه القضية، فإن كنت محقاً نعرضها عليك، وإن كنت ظالماً أدفع لهم ولا نتقاضى أمامك، سمع منه قال له: لا، أنت محق اعرضها علي، فلما عرضها عليه حكم عليه، قال له: كنت سألك، قال له: خفت ألا تعطيمهم حقهم.

عندما يبلغ العدل في الإنسان أن يحاسب نفسه على الليرة، على القرش، يستحق أن ينصره الله عز وجل، بالأمانة لا يوجد حل وسط، ولا نسبة بالأمانة، أمانة أو خيانة، لذلك ورد عن بعض العلماء قالوا: والله ترك دائق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام.

أيها الأخوة، الشهادة إما أن تكون لله لإحقاق الحق، أو أن تكون بداعي الهوى، فقد يشهد الإنسان مع صاحب له أو مع قريب له، سمعت قصة مؤثرة جداً، إنسان يجلس في بيته، وهو موظف دخله محدود، رفع الأجرة عدة مرات، لكن أصحاب البيت أرادوا البيت بطريقة غير صحيحة فأشار عليهم أحدهم أن يتهموه بالفساد الأخلاقي، والمستأجر في أعلى درجة من الأخلاق والالتزام والطاعة لله عز وجل وغض البصر، فالأمر رفع للقاضي طلب شهادة، عندهم طالبة تستأجر غرفة في بيته قيل لها: أتشهدين أنه يفعل أعمال لا إخلاقية؟ قالت لهم: أشهد، اعتنوا فيها عناء خلال شهر، الطعام والشراب وغسل الملابس، أعلى درجة من الخدمة، لأنها إذا شهدت أنه فاسد أخلاقياً يخل بالبيت، وأنا أعرفه توفي رحمه الله محافظ على أوامر الدين بأعلى مستوى وغض بصره عن النساء، وزوجته وبناته محجبات حجاباً كاملاً، إنسان ملتزم بأعلى مستوى والتهمة أنه فاسد أخلاقياً، أي يتكلم بكلام بذيء جداً، ويكشف عورته أمام جيرانه، فهذه الطالبة وعدتهم أن تشهد معهم، طربوا لها أشد الطرف، وأكرمواها إكراماً لا حدود له، يوم الشهادة قالت للقاضي: والله ما رأيت في حياتي إنساناً أطف منه، ولا أورع منه، فقيل لها: لماذا قبلت أن تشهدني معنا كما نريد، ثم رفضت؟ قالت: خفت أن تأتوا بشاهدة أخرى، وكانت شهادتها حاسمة وحسمت الدعوى لصالح المستأجر، والمستأجر ما ظلمهم أبداً لكن طعموا، ولكن هذه الفتاة بذكائها وجدت أنها لو رفضت سيأتون بشاهدة أخرى تقبل، فقبلت أن تشهد كما يحبون هكذا قالت لهم، ثم نطق بكلمة الحق، قالت لهم: والله ما نظر إلى في هذه الفترة كلها، بغض بصره، وفي بيته ملتزم، وما رأيت أطف منه، فكان الحكم افتداء على المدعى، وتحمل المدعى السجن.

أيها الأخوة، أحياناً الشهادة تفصل الحق، أي تكون حاسمة أحياناً، أنا مرة دعيت إلى شهادة خارج دمشق، ولبيت هذه الدعوة بكل ممنونية، هذا حق



أنا حكمت بين أخوين وبوثيقة بخط يدي، فقدمت بعد عشر سنوات للقاضي، فطلبني للشهادة، والله بادرت بكل نفس طيبة، لأن هذا حق، أن تشهد ما جرى هذا واجب ديني — لكن الشهادة الله — أما إذا هناك أهواء، قال له القاضي: أحضر شاهداً، فالشهود واقفون في الخارج ينتظرون، قال له: تشهد معي كذا؟ قال له: نعم أشهد، ماذا تريده؟ قال

له: خمسة آلاف، لا بأس، دخل فوجد مصحفاً، ويوجد قسم، فقال له: قف أريد عشرة، فلذلك يقول الله عز وجل:

﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهُوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾

ما الذي يمنعكم أن تعذلو؟ اتباع الهوى:

﴿وَإِنْ تَلُوْا﴾

أي تبدلوا الشهادة:

﴿وَإِنْ تَلُوْا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

هذا تهديد من الله عز وجل، إذا أدليت بشهادتك كاذبة لصالح زيد أو عبيد، أو مقابل مبلغ كبير، وغيرت ظروف الحدث، وأضفت، وحذفت، وغيرت، قال:

﴿وَإِنْ تَلُوْا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

والحمد لله رب العالمين